Journal of Alasmarya University
Volume 11, June 2009

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الحادي عشر، يونيو 2009

القيم الروحية والتواصل الإنساني

عبد السلام الأسمر نموذجاً

د. عبد القادر النفاتي*

لئن كانت الصّراعات المحتدمة والتناحرات المتكرّرة التي يشهدها العالم اليوم، ومحاولات السّبق والسّيطرة التي تروم ترسيخها قوى القهر والهيمنة على جلّ الثقافات والشعوب تشكّل عند مناصري هذه الصراعات والصدامات عاملا من عوامل مزيد البحث عن أسباب القوّة والنصر والهيمنة وامتلاك رهان المنافسة فضلا عن ناصية الغلبة، فإنّها تمثّل أيضا عند بعضهم الآخر سببا مهمّا من أسباب البحث عن آليات التجاوز ودافعا أساسيا من دوافع البحث عن الحلول الممكنة لإحلال روح الوئام والتفاهم والتواصل بدل التناحر والصّدام.

وكان نتيجة ذلك أيضا أن طرحت عديد المقاربات المختلفة سواء أكانت اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو غيرها، من أجل إحلال التواصل والتقارب ولكن فاعليّة تلك المقاربات لم تكن حقيقة في المستوى المأمول ولم تحقّق الرجاء المطلوب، بل ظلّت النزاعات على ما هي عليه والصدامات في تصاعد مستمرّ، ومقولات الصراع والقوّة تجد الآذان الصاغية والاستساغة والقبول، أمّا نداءات السلام والتعايش والوفاق فتكاد تفقد مصداقيتها، ولا تجد الاهتمام والعناية اللاّزمين.

ضمن هذا الأفق فإن البحث عن آليات أخرى ناجعة وعن الحلول الممكنة يظلّ السبيل الأمثل لتجاوز حالة الصراع وإحلال مفاهيم التواصل والأخوّة، ولعلّه في هذا

* جامعة الزيتونة، تونس.

الـسياق ينـبجس المجـال الـصوفي مجالا حيويّا ومهمّا بل وحريّا بالاستنطاق والدراسة والتأمّل يمكن الاستفادة منه أيّما استفادة، خاصّة وأنّ أصحابه أي الصوفية يتحدّثون عن بـناء الإنسان وعن القيم والمبادئ فضلا عن ما تحقّقه تصوّراتهم من وئام وتفاهم ومحبّة وإخـاء وتعايش، هذا إضافة طبعا إلى ما تشهده جماعاتهم من تعاون وتضامن وتواصل ووئـام وتفاهم وإخاء يشجّع في الواقع على التأمّل والاهتمام والنسج على ذات المنوال، ولا ريـب أن الـشيخ عـبد السلام الأسمر[1] هو من أبرز رجال التصوّف الذين يمكن أن

1- هو الشيخ العظيم الكامل القدوة العمدة الصالح العامل شيخ زمانه ووحيد عصره وأوانه والمربي الواصل القطب الغوث المكاشف ذو المقامات العليّة والأحوال السنيّة والأفعال المرضية شيخ الطريقة وإمام أهل الحقيقة مولانا الشيخ سيدي عبدالسلام بن سليم بن محمد بن سالم بن حميدة بن عمران الشهير بالخليفة بن محيا بن سليمان بن عمران بن أحمد بن خليفة الملقّب بفيتور بن الشيخ الولي الصالح العابد الزاهد السيّد الشريف الحاج عبدالله الشهير بنبيل المقبور بمكّة، يرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت سيدنا محمد خاتم المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولد عام 881 هـ بمدينة زليتن (غرب ليبيا) وتوفي ودفن بها عام 981 هـ. أسّس مركزا إسلاميا (زاوية) لا يزال يشع نورا ومعرفة منذ حوالي 500 عام -وإلى ما شاء الله- في مدينة زليتن بغرب ليبيا، ويعتبر بحق مجدّد الطريقة العروسية. نظّر للتصوف واعتنى به وأبرز حقيقة كون التصوف هو عين التوحيد. درس على الشيخ عبدالواحد الدوكالي والعديد من أعلام المالكية، عاصر الشيخ أحمد زروق الفقيه المالكي المعروف وصاحب الفكر الصوفي المعتدل وكانت تجمعه به علاقة مودّة كبيرة، عانى في حياته كثيرا، وقد بلغت علومه وطريقته أنحاء العالم أجمع وتأثر بفكره الكثيرون من أندونيسا إلى تركيا وسوريا وصولا إلى مصر وتونس وغرب إفريقيا خاصة تمبكتو بمالي وإلى المغرب الأقصى وله مخطوطات في مختلف الجامعات العالمية وكبرى المكتبات ومن بينها مكتبة الكونغرس بواشنطن، توجد حاليا بجوار زاوية الأسمر الجامعة الإسلامية الليبية التي تسمّت بالجامعة الأسمرية في محاولة لمواصلة مسيرة سيدي عبد السلام الأسمر. وسلك سيدي عبد السلام الأسمر سلوكا راقيا في الدعوة عماده المحبة والصبر وظهر ذلك جليا في قصائده الكثيرة كما في رسائله ومكاتباته إلى المسلمين من تلاميذ ومريدين وإخوان في شتى أصقاع المعمورة، ومن آثاره: الحزب الكبير، السلسة الجوهرية، الأنوار السنية في أسانيد الطريقة العروسية، الوصية الكبرى، الوصية الصغرى، سفينة البحور، حزب الطمس، حزب الخوف، حزب الفلاح، وظيفة الشيخ، كتاب العظمة في التحدّث بالنعمة، مقطعات شعرية كثيرة بالفصحى وأكثرها بالعاميّة.

انظر: كتاب تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبدالسلام الأسمر رضي الله عنه للشيخ كريم الدين البرموني، المكتبة الثقافية بيروت، د.ت ص: 74، وكتاب القطب الأنور عبدالسلام الأسمر لأحمد القطعاني، دار الكتاب الليبي للطباعة والنشر والتوزيع ومكتبة جمهوريّة مصر، الطبعة الثانية 1993، ص: 40 وما بعدها، وكتاب الطريقة السلامية في تونس أشعارها =

نيمّم وجهتنا إليهم، ونقصد رحابهم، فعندهم من الثّراء الرّوحي ومن التجربة السّلوكيّة ما يشفي غليل السّائل، ويفي بحاجة الطالب.

ومن الاعتبارات المحفّزة على المضي قدما في هذا المسار الفكري في الحقيقة السعي إلى إزاحة تلك الصّور المشوّهة التي ألصقت بالشأن الصوفي عموما والتي تعتبر التصوّف متيهة من متاهات الضياع والبعد عن الواقع والإنجاز، هذا إضافة إلى تلك النعوت السّلبية التي تنأى بالتصوّف عن عالم المجتمع وتروم عزله عن عالم الفعل والإسهام والإبداع ليكون خاصّا بمن لفظتهم الحياة وبمن فضّلوا العزلة خيارا أساسيّا لحياتهم، كما يرى بعضهم أن المناهج التربويّة والأساليب التعليميّة المعتمدة في هذا السياق (ونعني هنا علاقة الشيخ بالمريد) هي علاقة غريبة ومشوبة بالغموض ويشبّهونها بعلاقة الميّت بين يدي غاسله[2]، وكذلك الدعوات المتكرّرة إلى انتهاج مسلك الزهد والعزلة ونبذ الدنيا وغيرها، تكاد تكون أمرا مرفوضا يمجّه العقل ويمقته الواقع المعيش.

بناء على هذا كان من الضروريّ في الحقيقة إعادة المفاهيم إلى نصابها والموازين إلى قسطاسها وإزاحة تلك الصور والنعوت المشوّهة، وبيان أن ما يكتنفه التصوّف من ثراء فكري ومن غنى روحي ومن تعاليم وقيم ومبادئ هو أمر عظيم ومهمّ حقّا لا يمكن الاستفادة منه في المجال الفردي فحسب بل يمكن استغلاله كذلك في حلّ إشكاليات التواصل بين الجماعات خاصّة إذا ما تمّ توظيفه التوظيف الواعي والأمثل.

إضافة إلى هذا فإن الاهتمام بما يمكن أن يوفّره المجال الرّوحي من قيم وأدبيات ومفاهيم تسهم في إحلال التفاهم والتعايش والتواصل بين البشر يندرج أيضا في سياق التأكيد على أن التصوّف ليس نقيض الحياة الماديّة إنّما هو دعوة إلى الفوز بالدارين الدنيا والآخرة، والصوفي يعمل لدنياه كأنّه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنّه

=

وألحانها لفتحي زغندة، بيت الحكمة قرطاج 1991 ص: 31 وما بعدها، وكتاب رسائل الأسمر عبدالسلام بن سليم الإدريسي الحسني إلى مريديه، دار المدار الإسلامي الطبعة الأولى سنة 2003، ودائرة المعارف الإسلاميّة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1998م، ج: 22، ص: 6862 وما بعدها (تعريف الطريقة العروسية)، وكذلك الموقع الإلكتروني التالي: عبد_السلام_الأسمر/ar.wikipedia.org/wiki - 26 k

2- لقد تناول ابن خلدون هذه القضية بالدراسة والتحليل وأبرز حقيقة العلاقة ومراحل الاحتياج إلى الشيخ، انظر في هذا كتابه (شفاء لتهذيب المسائل)، الدار العربية للكتاب، 1991، ص 206 السائل

يموت غدا وذلك حرصا على تمثّل القول القرآني الكريم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: 201].

إنّ البحث في ثنايا الإسهامات الصوفية فضلا عمّا يمكن أن يكون دواء لأمراض العصر وحلاّ للصراعات المتأجّجة في عالمنا المعاصر هو أمر مهمّ حقّا لا يثبت قيمة الروحانية في إحلال الوئام والتعايش بين الناس فحسب بل ويؤكّد أيضا أن المجال الرّوحي هو مجال بكْر فعلا، فيه من التصوّرات والرؤى ما يصلح لأن يكون شفاء كافيا لأمراض القلب والعقل معا، فضلا عن معالجة إرهاصات الواقع وتحدّياته.

عوائق التواصل وحتميّة القيم

التواصل الإنساني طموح كلّ البشر ومرام كل الشعوب تقريبا، ولتحقيق ذلك خليق بالإنسانية قاطبة أن تحرص على تجاوز العراقيل والعوائق التي تحول دون تحقيق ذلك المبتغى وتعمل على إزاحة كلّ ما من شأنه أن يعرقل الوصول إلى الوئام العالمي والتعارف البشري، هذا فضلا عن إيجاد الآليات اللاّزمة والضروريّة الكفيلة بتحقيق ذلك والحفاظ عليه.

فأمّا العراقيل أو العوائق فهي عديدة ومتنوّعة في الواقع في حاضرنا المعيش ولعلّ أبرزها: ما تحمله بعض الأنفس من ميل إلى الأثرة وحبّ الذات ومن نزوع إلى الأنانية والغلبة وكراهية للآخرين وهو ما يدفعها إلى نفي الآخر والقطع معه بل وإلى الصراع أو الصدام معه إن لزم الأمر صداما لا يؤدّي إلاّ إلى إثبات وجود على حساب الآخر، بمعنى إنّ العائق الذاتي أو النفسيّ له دوره في بلورة الأفكار وفي بناء العلاقات الإنسانية وتقييمها وإذا ما كان هذا العائق سلبيا انعكس ذلك بدوره سلبا على مستوى التفاهم والتقارب البشريين.

إضافة إلى هذا فإنّ العوامل السياسيّة والاقتصادية، لها دورها اليوم في بلورة العلاقات بين الشعوب وفي إحلال السلام والوئام والتعارف، وإذا ما كانت الإرهاصات قويّة وأثّرت هذه العوامل سلبا على مستوى التقارب والتعاون والتفاعل فإنّ تلك العوامل ستمسي عائقا حقيقيّا ومهمّا أمام رجاء التواصل، ذلك أن انتهاج بعض البلدان مثلا النظم الكليانية والشمولية وتغليبها لأساليب القوّة والدكتاتورية يدفعها إلى تغليب مصالحها الحيويّة والاقتصاديّة ومن ثمّة يُعتَمَد مسلك العنف بدل الحوار والسيطرة بدل التفاهم والقناع بدل الإقناع ومنطق القوّة بدل قوّة المنطق، وهذا ما ينسف حقيقة مفاهيم

الأخوّة والتعاون والتواصل، ويبدّد كل رجاء للتقارب.

هـذا وإذا مـا انـزاح كـل مـن مجالـي السياسة والاقتصاد عن مساريهما الصحيح، خاصّـة في ظـلّ سيطرة فكر العولمة وتقارب المسافات بين الدول سيكون التأثير سلبا بالطـبع علـى المـستوى الاجتماعـي حـيث سـتتعمّق عـوامل الفقـر والجـوع والمـرض والـتخلّف والأمـيّة والكـراهية والبغـضاء وبهـذا سـوف لـن تحكـم المجتمع الكوني قيم التواصـل والتـضامن والـتآزر والـتكافل والتآلف بل ستتكرّس مفاهيم الانعزالية والتقوقع والصدام، خاصّة إذا ما أثّر العامل الثقافي بدوره سلبا على مستوى العلاقات بين الشعوب والحـضارات والـثقافات، علمـا أن العامـل الـثقافي هـو مـن أبـرز العوامل المؤثّرة على مـستوى العلاقـات بـين الـشعوب والحـضارات، إذ يقـول هانتغـتون في هـذا الـسياق: « والفـرض الـذي أقدّمـه هـو أن المـصدر الأساسـي للنزاعات في هذا العالم الجديد لن يكـون مـصدرا إيديولوجيا أو اقتصاديا في المحل الأوّل، فالانقسامات الكبرى بين البشر ستكون ثقافية والمصدر المسيطر للنزاع سيكون مصدرا ثقافيا وستظل الدول /الأمم هي أقـوى اللاعـبين في الـشؤون الدولـية لكـن النـزاعات الأساسـية في الـسياسات العالمـية سـتحدث بـين أمم ومجموعات لها حضارات مختلفة وسيسيطر الصدام بين الحضارات علـى الـسياسات الدولـية ذلـك أن الخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هي خطوط المعارك في المستقبل »[3].

على هذا الأساس إذن فإنّه إذا ما رمنا إحداث تواصل وتفاهم بين البشر حريّ بنا أن نهـتم بالجانـب الـثقافي الاهـتمام الـلاّزم ونحـرص على إيجاد التوازن الضروري بين الخـصوصيّة أو الهـوية الفكـرية والثقافـية الذاتـية وبـين الخـصوصيّة العالمية ومتطلّبات الكونيّة لكي لا يقع الصدام والتناحر والاهتزاز لكلا الثقافتين، ذلك أنّه بتلك المواءمة بين الخـصوصيّتين الثقافيـتين الذاتـيّة والكونيّة يمكن تهيئة الأنفس والأفكار كي تتقبّل الآخر وتعمل على الاستفادة من تجاربه، والتعرّف عليه والتعاون معه فضلا عن مدّ يد التواصل والمـودّة إليه، يقول أحد الباحثين في هذا المقام: « وإذا كانت الدول المتوسّطة والصغيرة تلهث دائبة لتقفز إلى هذا القطار الذي يحدو اقتصاديات العالم فإنّنا نحن معشر المثقفين نـتوجّس خـيفة من انطلاق قطار من نوع آخر هو قطار الثقافة العالمية التي إن استحكم

3- هانتغتون (صامويل): صدام الحضارات، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، الطبعة الأولى 1995، ص: 17 5

أمـرها علـى مـا يـراد لهـا أطبقت على هويتنا وسحقت شخصياتنا، إلا أننا رغم كل ما يـدور في الكوالـيس حتـى الآن ومـا ستكـشف عنه الأمور فيما بعد لا نستطيع أن نواجه الـشأن الـثقافي العالمـي بالـتقوقع والـردّة فـندفن رؤوسنا في الرمال شأن النعامة ونَعْدُو فريسة للصيّاد »[4].

ومـن عقـبات التواصـل الإنـساني أيضا ما يذاع من أفكار تغذّي روح العداء والتناحـر بـين الشعوب والحضارات والثقافات والأديان بدل التفاهم والتعاون لعلّ أبـرزها مـا ذكـره صـامويل هانتغتون أستاذ العلوم السياسية في جامعة هارفرد في مقالـه (الـصدام بـين الحـضارات) والـذي نـشر بدايـة في دوريّـة فـورين أفـيرز (FOREIN AFFAIRS –SUMMER 1993)

ثـم كـتابا مستقلاّ[5] حيث يعتبر أن الصدام بين الحضارات هو أمر حتميّ نتيجة للاخـتلافات الجوهـرية بينها والتي تتعلّق بالثقافة والدّين والتاريخ واللّغة وغيرها وتقف حـائلا أمـام رجـاء التواصـل والـتقارب، ومن ثمّة فإن البقاء سوف يكون للأقوى، ولمن امـتلك ناصـية الغلـبة والسّيطرة، ولمن وعى أن الحياة صراع وصدام وأن « الإنسان ذئب للإنسان »[6]. ومن التصوّرات أيضا ما حرص على تأكيده فوكوياما[7] حول نهاية التاريخ والإنـسان الأخـير ونيتـشة حـول نهايـة الإله واشبنغلر حول نهاية الحضارة الغربية، يقول أحـد الباحـثين في هـذا الـسياق: « ومـن المؤسـف أن الغـرب الذي اعتزّ دائما بمفكريه وأديانـه ومبدعـيه وصـل الـيوم إلى حافة الاعتراف بنهاية الحضارة الغربية على حدّ قول اشـبنغلر ونهايـة الإلـه عـند نيتـشة ونهايـة التاريخ عند فوكوياما وصراع الحضارات عند هنتغتون »[8].

أضـف إلى هـذا فـإنّ الأفكـار المعاديـة للإسـلام والمـسلمين والمـنادية بضرورة الـصّراع والتناحر والتصدّي هي أفكار تغذّي في الواقع روح العداء والتناحر بدل الأخوّة

4- الكك (فكتور): القيم في عصر العولمة، وقائع الندوة المولدية الدولية، الدورة 28 القيروان 2001 سلسلة حوارات عدد 2 ص: 95

5- Huntington: « Le choc des civilisations », Paris, odite Jacob, 1997.

6- ذلك تصوّر نادى به الفيلسوف الألماني (هوبز .HOBBES) سابقا

7- Fukuyama: « La fin de l'histoire et le dernier homme », Paris, Flammarion, 1997.

8- بهنسي (عفيف أحمد): الإسلام وحوار الحضارات، مكتبة الملك عبدالعزيز العامّة الرياض 1425هـ/ 2004م المجلّد الثاني، ص: 80

والـتعاون بـل وتجعـل مـن أمـل التواصـل رجـاء أجـوفا لا قيمة له على مستوى الواقع والممارسـة، وترسّـخ كذلك ما نادى به صامويل هنتغتون سابقا من صراع وصدام فضلا طـبعا عـن جملـة مـن الـصّور النمطيّة المشوّهة الأخرى يصعب إزاحتها وزعزعة اليقين فيها.

ومن العوائق أيضا تداعيات أحداث 11 سبتمبر سنة 2001 بأمريكا وما نجم عن ذلـك مـن احـتلال لأفغانـستان وللعـراق وانـتهاك لحقـوق الإنسان وللقوانين والحرمات انـتهاكا أدّى إلى تغذيـة مـشاعر الـنقمة والـصّراع، وإلى التسابق نحو القوّة وامتلاك زمام السّيطرة.

إنّ هذه العوائق هي بلا ريب إحدى العراقيل المقوّضة للتواصل الإنساني، بل أنّها تـشكّل محقـا لأمـل الـتعاون والـتعارف الإنـسانيين، وتكريسا لشريعة الغاب، وارتكاسة للحضارة الإنسانية برمّتها إلى مستوى الحضيض والتناحر.

إنّـه في ظـلّ هـذه الإرهاصـات والـتحدّيات الـتي تحول دون إدراك أمل التقارب الإنـساني تنـبجس في الواقـع القـيم الإنـسانيّة حلاّ شافيا وآلية ناجعة من آليات التجاوز ومـنهجا راقـيا أيـضا مـن مـناهج التواصـل تحتّمه الضّرورة ويفرضه الواقع، فمن يؤمن بالمحـبّة والعطاء والإيثار لن تجد مشاعر الأنانيّة والحسد والبغضاء إلى قلبه سبيلا، ومن يـؤمن كـذلك بالـرأفة والـرحمة والمودّة لن يقبل كذلك بنفي أخيه الإنسان أو بتجويعه وقتله، وعلى هذا الأساس تبدو القيم حقّا شفاء لأمراض القلوب ودواء لنزغات النفوس، ومنهجا أمثل لتربية السّلوك وتعويد الذات على تقبّل الآخر والانفتاح على المختلف.

لكـن الإشـكال الـذي يطـرح ذاتـه في هـذا الـسّياق هو أن بعض المرجعيّات أو الإحداثـيات الـتي تكتنـز هـذه القـيم النبـيلة والآداب الـسّامية التي يمكن أن تستفيد منها المجموعة الإنسانيّة هي غير معروفة بالقدر الكافي ولا تتوفّر لها أحيانا الإمكانيّة اللاّزمة للإثـبات والتجـسيم والتمظهـر، ومـن ثمّـة تغـيب إيجابيتها عن الفعل والتأثير ويُتناسى دورها في إطار التقريب والبحث عن آليات التواصل والتعاون والتفاهم، ومن هنا كان لا بـدّ مـن تـسليط الـضوء علـى هذه الجواهر والمرجعيّات المهمّة التي تكتنزها حضارتنا الإسلاميّة لعلّ أهمّها مرجعيّة التصوّف والقيم الروحانيّة العالية التي يتضمّنها.

إنّـه في هـذا الـسياق في الواقع تفسّر العودة إلى تجربة الصّوفي الأكبر عبدالسلام الأسمر الرّوحية، بما أنّها تجربة غنيّة حقا بالمعاني والقيم الفاعلة وبإمكانها أن تسهم في

إيجـاد الـتقارب والـوئام والتواصـل بين البشر خاصّة إذا ما تمّ توظيفها التوظيف الواعي والرّصـين، وعـدم حـصر نفعهـا علـى مـستوى الـذات أو الفـرد فحـسب، وتعميم آدابها وتعالـيمها على البشريّة قاطبة تعميما يؤكّد أن تجارب التصوّف عموما وتجربة الأسمر خـصوصا هـي تجـارب مهمّـة وغنـيّة بالمعانـي والقـيم والآداب وفـيها ما يصلح للفرد والمجمـوعة علـى حـدّ سـواء وفـيها أيـضا ما يمكن أن يؤسّس حقيقة لاجتماع إنساني مـتعاون ومتضامن، بمعنى آخر نحن في حاجة إلى فكر الشيخ عبدالسلام الأسمر وإلى مـناهجه ونـصائحه التربـويّة والـسلوكيّة أي إلى ثقافـة صوفية عالية متشبّعة بقيم روحيّة مميّـزة تهذّب الذات وتقوّم السلوك وتثبّت أواصر المجتمع وتبث روح الأخوّة والتسامح والـتعاون ومـن ثمّـة تحـلّ الإشكاليات وتتجاوز العراقيل وتبنى حضارة التواصل، فماذا يمكـن أن نجد عند الشيخ الأسمر إذن؟ وماذا يمكن أن نستفيد منه في ثنـــــايا تجربته الرّوحيّة ؟

تجربة الأسمر وإمكان التواصل

تعتـبر تجـربة عبدالسّلام الأسمر من أهمّ التجارب الرّوحية التي يمكن الاستفادة منها في واقعنا العالمي المعيش والذي تشوبه عديد التحدّيات والعقبات التي تحول دون تحقـيق التواصـل والـتفاهم، فهـي تكتنـز مـن القيم والمفاهيم والدّلالات ما يصلح فعلا لمعالجـة قـضايا العصر وما يمكن أن يكون شفاء حقّا لأمراض القلوب والأنفس والتي تقـف عائقـا أمـام التقارب والتواصل الإنسانيين، وتكتنز أيضا ما يمكن أن يكون علاجا لإشكاليات الواقع وإرهاصاته المختلفة.

إنّ الاسـتلهام مـن تجـربة الأسمر لمعالجة قضايا الذات والواقع هو جهد رصين ومترشّـد أدرك مكمن الدّاء واهتدى إلى حقيقة الدّواء، وهو فضلا عن ذلك يمثّل ردّا كما سلفت الإشارة على تلك الصّور النمطيّة المشوّهة التي ألصقت بالتصوّف عموما وجعلته مجالا خاصّا بمن لفظتهم الحياة، ففي التصوّف من المعاني والعبر والحكم والتعاليم ما يجعله فعلا عالما محبّذا ومطلوبا للصوفيّة والباحثين على حدّ سواء.

إنّ تجربة الأسمر الروحيّة هي تجربة غنيّة ومهمّة يمكن تغيير الواقع والأوضاع وتأسـيس الإصلاحين الذّاتي والجماعي اعتمادا على تصوّراتها وتعاليمها ونصائحها، بل ويمكـن توظـيف مـناهجها وأفكارهـا توظـيفا رصـينا وحكـيما مـن شأنه أن يحلّ كلّ المعضلات، خاصّة إذا ما كان المنطلق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا

﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] بناء على هذا إذن يمكن تقسيم عمليّة الاقتباس والاستلهام من تجربة الأسمري وآثاره إلى قسمين أحدهما يتعلّق بالإصلاح الذاتي وما يمكن أن نستفيد منه على مستوى تزكيّة النفس وبناء الإنسان الفرد، فالتواصل الإنساني لا يمكن أن يتمّ ما لم تتم تربية الفرد، وتهيئته فكرا وسلوكا تهيئة تمحّضه إلى التعامل الحضاري والإنساني مع الآخرين.

وثانيهما يتعلّق بالإصلاح الجماعي وما يمكن أن نستعين به على مستوى التربية العامّة وتكوين الجماعة الإنسانيّة المتحابّة والمتآلفة التي تجمعها آصرة الأخوّة والتعارف والتعاون، إذ التواصل لا يمكن أن يتحقّق ما لم توجد هذه المعاني بين أفراد المجموعة، وما لم يدرك الجميع أهميّة المدنيّة وضرورة التفاعل لإقامة العمران، يقول ابن خلدون في هذا الصّدد: « الاجتماع ضروريّ للنوع الإنساني وإلاّ لم يكمل وجودهم وما أراده الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه إيّاهم وهذا هو معنى العمران »[9].

فأمّا على مستوى البناء النفسي والتربية الفرديّة فقد أجاد الأسمر في الحقيقة في هذا الشأن وطال باعه على اعتبار أن التجربة الصوفيّة عموما وتجربته الرّوحيّة خصوصا هي تربية للذّات أوّلا وحرص على تهذيبها، فهو يقول مثلا في الوصيّة الكبرى: « إخواني اغتنموا التوبة قبل الفوت واغتنموا الحياة قبل الموت، إخواني ومن شروط التوبة الندم على ما فات وينوي التائب أن لا يعود إلى ذنبه فيما بقي من عمره ويترك المعصية من ساعته التي تاب فيها ولو كان متلبّسا بها »[10].

إنّ ما يمكن ملاحظته في هذا السّياق أنّ الشيخ عبدالسلام الأسمر يؤكّد منذ البدء على ضرورة العودة والإنابة، لأن ذلك هو اللاّزم الأوّل لاستقامة الذّات وتهذيب السّلوك تهذيبا يهيّئ النفس إلى التمسّك بحبل الله المتين والمضيّ قدما في الطريق الربّاني، ثم لأن التوبة هي أوّل مقامات السّالكين أو أوّل منازل السّائرين إلى ربّ العالمين، وإذا ما تمّ تمثّلها التمثّل التّام واستيفاء كلّ شروطها، حينها يمكن للذات أن تعرج في مدارج السّالكين، ويمكن لها أيضا أن تكون مهيّئة أكثر لتقبّل الآخر والتواصل معه، فتهذيب

9- ابن خلدون: المقدّمة، دار الجيل بيروت، ص: 47

10- الأسمر (عبدالسلام): الوصيّة الكبرى، المطبعة البارونيّة، الإسكندرية، د.ت، ص: 6، راجع أيضا: الوصيّة الصغرى للأسمر،10 في كتاب تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبدالسلام الأسمر للشيخ كريم الدين البرموني، المكتبة الثقافيّة بيروت، د.ت، ص: 179

الـنفس ودعـوتها إلى التوبة والاستقامة إذن هو منهج هامّ وأساسيّ اعتمده الشيخ الأسمر في بـناء الإنـسان، وتكوين الفرد، ورسم مسار التواصل، وممّا يذكره الشيخ أيضا في هذا السّياق:

« اسمع نوصيكم — مـن يشبح بالعيـن يـــرا
هذا عار عليكـــم — اتخـون عهـد الله يـا فقـرا
راه يبصر فيكـــم — واترك الدنيا الخاينا الغرا
الطاعه يبغيكـــم — سبحانه عالـم بمـا يجـرا
.... — ...
انفوسكم تاذيكم — يتبــع الشيطـان والشهـوى
بالك يلهيـــكم — الشـيـطـــان بومـــــــــرا»[11]

ويقـول أيـضا في مقـام آخـر: « وعليكم بالإخلاص في كلّ فعل من الأفعال ولا تعرفوا أحدا إلاّ الله تعالى وعليكم بالخضوع واليقين والمعرفة والهداية والورع والتقوى والخوف من الله تعالى والرضى بما يجيئ من عند الله من خير أو شرّ والتسليم والرضى بالقلـيل والكثير والتقى والقطمير والصّمت والصّبر والقناع والرّضى بكلّ ما يقع من الله تعـالى »[12]، لا ريـب أن هـذه القـيم التي يؤكد على أهميّتها الشيخ الأسمر، ويدعو إلى التحلّـي بهـا وإلى تمـثّلها هـي قيم ضروريّة وأساسيّة حقّا في عمليّة التهذيب والبناء، إذ بواسـطتها يـتمّ الارتقـاء بالسّلوك من حضيض المجاز إلى المستوى الأفضل حيث تلتقي الأنفـس في مستوى المحبّة والعطاء والتعاون والتعارف، ومن ثمّة يكون التواصل ممكنا، والتعارف مطلوبا، والتعاون ضروريا.

وممّـا أشـار إلـيه الـشيخ عبدالـسلام الأسمـر أيـضا في سياق تهذيب الذّات وبناء الإنـسان الفـرد بـناء روحـيّا وفكـريّا متيـنا، أنّه يحسن بالمرء أن يلتزم ذكر الله فبواسطته تطمئن القلوب وبواسطته أيضا تستحضر المراقبة الإلهيّة فيتجنّب المرء حينها الوقوع في الـزّلل ويحـرص علـى إرضـاء المحـبوب والتواصـل مـع خلقه، وقد قال الشيخ في هذا المعنى: « الفقير الصادق التّائب الرّاجع إلى الله تعالى إن تكلّم ذكر وإن صمت تفكّر في

11- الأسمر (عبدالسلام): سفينة البحور من كلام سيدي عبدالسلام الأسمر وأتباعه، المطبعة الأهلية تونس، الطبعة الأولى 1346هـ ص: 36.

12- الأسمر (عبدالسلام): الوصيّة الكبرى، ص: 18

إيجـاد الخلـق وإعدام الخلق بعد الوجود ولا يبغض شيئا من خلق الله تعالى كلّهم لأنهم منـسوبون بقـولك خلـق الله وحـرمة العبد على قدر حرمة سيّده»[13]، ولعلّ الأوراد[14] المأثورة عنه، وكذلك متن الوظيفة[15] التي يردّدها، كلّها تصبّ في الواقع في هذا الوادي أي في إطـار ترسيخ الوعي الدّائم بالمراقبة والحضور الإلهيين اللّذين يخلّفان الاستقامة، والانفـتاح الإيجابي على الآخر، ولا شكّ أن الشيخ الأسمر كان مثالا لذلك فقد أوصله سـلوكه واجـتهاده التزكوي وذكره لله عزّ وجل إلى مرتبة الغوثيّة وهي مرتبة شريفة من مراتب التصوّف حيث يقول في هذا الصّدد:

« والغوث واحد بالتمام
صلاته في مكّة والسّلام
وفوقه الجرص على الهوا
شاخص بين الأرض والسّما
إنسان عابد لله خاشع
مسبّح وذاكر وخاضع
لا يتكلّم إلاّ بالذكر
ولا يحاسب في يوم الحشر
وإنني أنا الغوث يا إخواني
وليست الأخبار كالأعياني»[16]

إن مـا يمكـن ملاحظته إذن أن تربية الشيخ عبدالسلام الأسمر الروحيّة هي تربية قـيّمة حقّـا، تـصنع أو تكوّن الإنسان المتّزن والمنفتح، والمتقبّل للآخر، خاصّة إذا ما تمّ تمـثّل النـصائح والقـيم والمعانـي الـتي نـادى بهـا ووظّـف كـل ذلـك التوظـيف الواعي والرّصين، ولعلّ هذه التربية الإيجابيّة للشيخ تعود في الحقيقة إلى تصوّره العام للتصوّف

13- الأسمر (عبدالسلام): الوصيّة الصغرى، ضمن كتاب: تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبدالسلام الأسمر للشيخ كريم الدين البرموني، ص: 179، 180

14- انظر: المصدر نفسه، ص: 83 وما بعدها

15- انظر: تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبدالسلام الأسمر للشيخ كريم الدين البرموني، ص: 204

16- الأسمر: السلسة الجوهرية ضمن مجموع مع فوائد أخرى، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية رقم: 2139، ص: 20

الإسلامي بوصفه منهجا تزكويّا وتربويّا فاعلا يزكّي الذات ويهذّب الرّوح، ويرتقي بالإنسان إلى مستوى التواصل الإنساني المرجوّ، فهو يقول في سياق تعريفه: « التصوّف هو تصفية القلب من الأدناس الذميمة واجتناب الغيبة والنميمة ومعارضة أخلاق الطبيعة وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدّعاوي النفسانية ومنازلة صفات الرّوحانية، والتعلّق بعلوم الحقيقة، والنصح لجميع الأمّة واتّباع النبيّ صلى الله عليه وسلّم في الشريعة »[17].

إن هذه الرّؤية الشاملة للتصوّف هي التي مكّنت الأسمر في الواقع من رسم معالم ومناهج تربويّة وتعليميّة قيّمة تهذّب ذات الفرد وتصنع منه إنسانا روحانيّا متواصلا مع ذاته ومع ربّه ومع الآخرين أيضا.

أمّا على مستوى البناء العام والتربية الاجتماعية فإننا نلفي الشيخ عبدالسلام الأسمر أيضا علما صوفيا بارزا وطودا أشمّا أسهم بشكل كبير في الارتقاء بالعلاقات بين الأفراد، وفي تأسيس تصوّر مميّز لجماعة إنسانية متآلفة ومتكاتفة، ومتواصلة مع بعضها بعضا، ويكفي أن نتأمّل في هذا المضمار آثاره وأقواله الدّاعمة لمدلول المحبّة والتعاون والتواصل، فهو يقول مثلا حاضّا على التحلّي بمكارم الأخلاق بوصفها السّبيل الأمثل أو الشرط الأساس للحفاظ على التواصل والتفاهم الإنسانيين: « اعرفوا قيمة الأخوّة وقيمة المعرفة ولا تجادلوا بالنفوس المغوية ولا تتعصّبوا بحمية الجاهلية »[18]، ويقول أيضا: « إخواني وعليكم بالعفو عمن ظلمكم وتعدّى عليكم فاعفوا واصفحوا الصفح الجميل، قال عليه الصلاة والسلام من أراد الخلود في الجنّة فليعف عمّن ظلمه وليطعم من حرمه، إخواني ولا تحقّروا أحدا من خلق اللّه ولا تظلموا رجلا من عباد الله ومن جميع الخلائق كلهم ولو كان يهوديا أو نصرانيا، قال عليه الصلاة والسلام من ظلم ذمّيا فأنا خصيمه يوم القيامة »[19]، ثم يواصل في السياق ذاته ويقول: « إخواني ولا تجهروا الكلام على بعضكم بعضا ولا تتباغضوا ولا تتحاسدوا فيما عندكم من عبادة أو علم أو دين أو لباس أو غير ذلك وكونوا عباد الله إخوانا ولا تكونوا أعداء وإيّاكم ونظرة الخزي ونظرة البغض ونظرة العداوة وإيّاكم ونظرة النّهر والغضب عفانا الله وإيّاكم من ذلك »[20].

17- الأسمر (عبدالسلام): الوصيّة الكبرى، ص: 72

18- نقلا عن: القطب الأنور عبدالسلام الأسمر لأحمد القطعاني، ص: 115

19- الأسمر (عبدالسلام): الوصيّة الكبرى، ص: 29

20- المصدر نفسه، ص: 29- 30

لا شك أن هذه النصائح والتوجيهات تمتّن أواصر المحبّة والأخوّة وتجعل من الجماعة الصوفية خصوصا والإنسانية عموما جماعة متماسكة ومتفاهمة على اختلاف ثقافاتها وأديانها، بما أنّها تكتنز روح التسامح والمودّة، وتدعو إلى التّسامي عن رذائل الأشياء، وما يمكن أن يشين الأخلاق والسّلوك، ويعكّر صفو التواصل مع الآخر. إنّه بهذا تغيب حقّا كل ألوان الصّراع والصدام وتنتفي هواجس الخوف والرّيبة، بل وتحل محلّها قيم وآداب إنسانية عالية عبّرت عنها الطريقة السّلامية أو العروسيّة[21]بتعاليمها وممارساتها، إذ يقول الشيخ عبدالسلام الأسمر في هذا السّياق: « إخواني وأصل هذه الطريقة التواضع والصّدق والمحبّة والصبر والإنصاف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[22].

وممّا نبّه إليه الشيخ أيضا في إطار نصحه للجماعة وتهذيب سلوكها، والتقريب بين أفرادها، كي يتمّ التعارف والتواصل والتعاون: « إخواني ولا تنهروا السّائل والمساكين واليتيم والغريب والأعمى والأبرص والأجذم والمريض والأشلّ والأعرج، إخواني فلا تنهروهم ولا تضربوهم ولا تنازعوهم فإذا قصدوكم أو طلبوا منكم المعاش فلا تطردوهم وأعطوهم ممّا عندكم من القليل والكثير »[23].

إنّ ما يمكن ملاحظته في هذا المستوى أن نصائح الشيخ الأسمر لم تتعلّق بالجانب التربوي والسّلوكي للجماعة فحسب، وإنّما أشارت أيضا إلى الجانب المادّي والاقتصادي بوصفه جانبا مهمّا وحيويّا أيضا في رسم العلاقات والمحبّة والرحمة والتواصل بين الناس، بل إننا نجده يتناول المجال الفكري والتعليمي أيضا إذ يقول: « إخواني ومن علّمه الله علما فليعمل بعمله، ومن لم يعمل بعلمه فهو شرّ من الجاهل، ومن جهل منكم فليسأل عمّا فرض الله عليه فلا عذر للجاهل في عدم السؤال، قال تعالى فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون، وإيّاكم أن تكونوا غافلين عن الذّكر والسؤال فإنّه لا ينال العلم مستحي ولا متكبّر »[24]، إن هذه الشّمولية في الفهم والإحاطة بجلّ

21- انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الطبعة الأولى 1418هـ/ 1998م، ص: 6860، والطريقة السلامية في تونس، أشعارها وألحانها لفتحي زغندة، بيت الحكمة قرطاج، 1991، ص: 27 وما بعدها.

22- الأسمر (عبدالسلام): الوصيّة الكبرى، ص: 61

23- المصدر نفسه، ص: 81

24- المصدر نفسه، ص: 25

الجـوانب الحياتـيّة للإنسان تسهم ولا ريب في تمتين عرى الأخوّة والمودّة وتزيد آصرة التواصـل تواصـلا، وتـؤكّد في الـوقت ذاتـه أن آثـار وأقـوال عبدالسّلام الأسمر هي آثار وأقـوال خالـدة وقيّمة تختزن تجربة غنيّة حقّا حريّ بالباحثين أن يعودوا إليها، من أجل المعرفة ومن أجل البحث عن حلول شافية للقضايا الرّاهنة.

ومـن أقـوال الـشيخ أيـضا والـتي يمكـن اسـتغلالها وتوظـيفها في إطـار الإصـلاح الاجتماعي والبناء الإنساني المتين: « فعاملوا خلق الله تعالى باللّين والرقّة والشفقة والحنان والنـصيحة لهم ولا تبغضوا من الخلق إلاّ من أوجب الله بغضهم مثل الكفّار وشبههم »[25] ويقول أيضا: « وعليكم بالنصيحة لكل مسلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وليكن بلين ورفق كما يشترط فيهما الأدب وعليكم بالحياء والمحبّة القويّة »[26]، ومن أدعيته التي تتّسق وهذا المعنى كذلك: « اللّهم إنّي أعوذ بك من العلّة والشرّ والعزلة والقهر والقلّة ومن زوال النعمة، اللّهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق »[27].

إن جلّ أقوال الأسمر تلتقي في بؤرة الإصلاح الاجتماعي والبناء الخُلقي، وتؤكّد أن الشيخ كان يتمتّع حقّا بنظرة عالية تستوعب المختلف ولا تنفيه، وبفهم حكيم وراسخ يـروم الوئام والتفاهم والتعاون بدل الصراع والصدام، وبوعي شموليّ ورصين يصبو إلى التقـريب وبـناء جسور التواصل، وتجاوز كل العراقيل والصعوبات التي تقف حائلا أمام رجـاء الـتفاهم والـتعاون الإنـسانيين، ولا ريـب أن الرسـائل[28] الـتي بعـث بهـا الـشيخ عبدالـسلام الأسمـر إلى أتـباعه ومـريديه في عديـد البلدان سواء أكان ذلك إلى أصحابه بطـرابلس الغـرب أو إلى أصـحابه بتمبكـتو أو إلى أصـحابه بـتونس أو إلى أصـحابه بالمغرب الأقصى تعكس فعلا حرصه على التقريب وتجاوز مفهوم الانعزالية والتقوقع، وذلك من أجل الإنسان عموما وبناء مجتمع إنساني متضامن ومتكاتف.

إنّ مـا يمكـن الخلـوص إليه إذن أن التجربة الأسمرية تتضمّن قيما روحيّة عالية

25- الأسمر (عبدالسلام): الوصيّة الصغرى، ضمن كتاب: تنقيح روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في مناقب سيدي عبدالسلام الأسمر للشيخ كريم الدين البرموني، ص: 180

26- المصدر نفسه، ص: 181

27- الأسمر (عبدالسلام): الحزب الكبير، مخطوط بالمكتبة الوطنية التونسية رقم: 2055

28- انظر: رسائل الأسمر عبدالسلام بن سليم الإدريسي الحسني إلى مريديه، دار المدار الإسلامي الطبعة الأولى سنة 2003، ص: 211 وما بعدها، والقطب الأنور عبدالسلام الأسمر لأحمد القطعاني، ص: 173

خليق بذوي الحكمة والبصيرة أن يقفوا على مضامينها وتعاليمها وقفة تأمّل واعتبار وتدبّر، ويبحثوا في ثناياها ومضمراتها عمّا يمكن أن يكون شفاء أمثل وعلاجا أنجع يمكن استغلاله أو توظيفه في سياق التواصل والتقريب بين الشعوب، توظيفا حكيما نتجاوز به عديد الإشكاليات المنبجسة والقضايا الرّاهنة، ولعلّه بهذا المنهج يعود الاعتبار إلى أهله وتدرك قيمة الرّجال، بل وتتأكّد قيمة التصوّف وتتجلّى فاعليّته في إصلاح مملكة الإنسان الذّاتية والجماعيّة، وفي الارتقاء بالإنسانية إلى المستوى الأفضل والأرقى، خاصّة إذا ما تمّ تمثّل معانيه وفضائله على مستوى الفكر والسّلوك وتكريس قيمه وآدابه السّامية على أرض الواقع تكريسا محكما وصادقا يجمع بين المتفرّقين ويوفّق بين المختلفين ويبني حضارة التواصل والوئام، ولعلّ هذا ما كان يصبو إليه الشيخ الأسمر حينما أوصى قائلا: « إخواني فكونوا حيّين ولا تكونوا ميّتين وكونوا بحياة الطاعة متّصلين غير منفصلين، وكونوا مقرّبين ولا تكونوا مبعدين، وكونوا صادقين سالمين مسلّمين وكونوا مؤمنين ولا تكونوا مجرمين وكونوا حافظين محفوظين »[29]، ولا ريب أن هذه الوصايا والحكم الخالدة لهي أفضل النصائح والأفكار التي يمكن أن تُصلِح الواقع المعيش بمختلف تحدّياته وإشكالياته ذلك أنّها تدعو إلى إصلاح الفرد والمجموعة معا، وإلى إقامة حضارة الصّدق والحفظ والسّلام والإيمان والمراقبة الإلهية تلك الحضارة التي ينعم فيها أفرادها بالمحبّة والمودّة والتواصل، علما أن هذه الأقوال والوصايا الأسمريّة تنسحب في الحقيقة أو هي صالحة لأيّ مجموعة بشريّة في أيّ زمان ومكان تروم التفاهم والتعاون وتحقيق الأرقى والأفضل، بقي فقط أن ننوّه بالفكر الإنساني والإصلاحي الذي تميّز به الشيخ الأسمر، وأن نستحثّ أهل الحكمة والموضوعيّة على إعادة قراءته قراءة معمّقة ورصينة وتأمّل تجربته وتدبّر أقواله والاستلهام منها بما يمكن أن يفيد في عمليّة الإصلاح وبناء الفكر الهادف والواقع المتوازن.

29- الأسمر (عبدالسلام): الوصيّة الكبرى، ص: 40